

الذين يزرعون الخوف

التيار العلماني في مصر التقط حادثة الشباب المتهوس الذي اعتدى بالجنائز والمطاوي على الحفل الراقص بالجامعة وملأ الجرائد صراخاً وعويلًا، وحاول البعض أن يجعل من الحادث الفردي المحدود قضية، ثم أزمة عامة عن اضطهاد الدين للفن وعدوان الدين على الفن، وانهقدت ندوات، وقام خطباء يتحدثون عن محنة الفن ومستقبل الفن في مواجهة القهر، وعن رجوعنا القهقري إلى الوراء إلى العصور الوسطى المظلمة، وخرجت مانشتات مثل مارشالات الرعب.. وجنرالات الحلال والحرام. وتجاوز الهدف مجرد التعليق على خبر إلى التخويف من كل ما هو إسلامي، وإلى التلويح بالعصر الخوميني القادم، وإلى الفاشية الدينية التي تتربص بمصر الدوائر.

ولم يعد المتهم هو بضعة نفر من المراهقين، وإنما الإسلام نفسه والتيار الإسلامي كله، ثم الأزهر، والمؤسسة الدينية، والصحوة الدينية، والبرامج الدينية، الكل أصبح في قفص الاتهام. وانبرت أقلام الدعاة الأفاضل، وطلع المشايخ بمقالاتهم

يدفعون عن الإسلام التهمة، ويدللون بالقرآن وبالحديث الصحيح وبالثابت في موضوع السماع على براءة الدين من هذا التعصب.. وما كانوا بحاجة إلى كل هذا.. فالشيخ صبح، والشيخ على محمود، وغيرهما كانوا يغنون القصائد على التخت إلى عهد قريب، وأم كلثوم تعلمت الأداء على يد الشيخ أبي العلا محمد، شيخ الملحنين في زمانه، وكان جوابها لكل من يسألها عن سر نطقها السليم ونبراتها الجميلة في الأداء: إنه القرآن، وحفظها للقرآن الكريم من الصغر.

وحرمة الموسيقى غير واردة في تراثنا الديني.

والفن لم يكن ضد الدين في أى مرحلة من مراحل التاريخ المصرى القديم والحديث.. وإنما كان توءما وشقيقاً ومصاحباً له طول الوقت، ومن خمسة آلاف سنة بنى الفنانون الأهرامات والمعابد، ونقشوا جدرانها، وزينوا سقوفها، وعازفة الهارب مرسومة على جدران مقابر الملوك.

وفي العصر الإسلامى كان الفنان هو الذى بنى القباب والمآذن والمنابر والمشربيات.. والمشكاة والمكحلة وأوانى العطر والزهریات الجميلة تحكى لنا عن فن الخزاف الإسلامى وإبداعه، ولوحات السجاد الكاشانى الفاخر، وفنون الأويمة.. وكلمة العود دخلت بنصها العربى فى كل اللغات الأجنبية، والموشحات الأندلسية دخلت فى السيمفونيات الأوروبية.

إن كل هذا التخويف من الدين تهريج.

وإذا كان الرفاق العلمانيون يريدون أن يقولوا لنا من طرف خفى.. إن ما حدث هو دليل قاطع على أن نظام الحكم العلماني هو النظام الأمثل لمصر ولأمن مصر.. فإني سوف أذكرهم بأن لبنان نظامها علماني، فأين حفظها من الأمن والأمان والحرب الأهلية تأكلها من اثنتي عشرة سنة، ولا تدع فيها حجراً على حجر، واليمن الجنوبي شيوعي علماني ومع ذلك يعيش حرباً دموية بين الإخوة الماركسيين لا تنتهي.. والحبشة يحكمها منجستو بنظام علماني، وهي تن من الجفاف والمجاعة والحرب الأهلية والقتال الدموي بين أبناء الوطن الواحد.

وغبار المقالات لن يججب الحقيقة.. إن ما حدث جريمة لا تختلف عن جرائم الكلوكلوكس كلان في أمريكا وأوروبا وهي قد اتخذت مثلها من الدين ستاراً، ولكنها لا تمت إلى الدين بسبب. ولكن جذور المشكلة وأسبابها في المجتمع نفسه وفي شكل الحياة التي أصبحنا نعيشها.

ولن يختلف معي أحد على أن الكثير من أشكال الفن الذي يعرض علينا الآن في السينما والتلفزيون والمسرح لا يدخل تحت اسم الفن، وإنما هو إهانة للفن، وهو يستفز المشاهد بتفاهته وهزله.. وبعض أفلام الفيديو المصرية تكاد تدخل في اختصاص بوليس الآداب، وبعض الأغاني هي كباريه درجة ثلاثة.. وبعض

الهزليات المسرحية هي رقص مواخير.. وإسفاف وتهريج
وبذاءات.. يمكن أن تشطب عليها الرقابة وتمنعها الدولة، ليس
بسبب الدين ولكن بسبب الحياء.

مثل هذه المشاهد مع المعاناة الموجودة ومظاهر الغنى الفاحش
والفقر المدقع يمكن أن تستفز أيَّ شابٍّ مُتهوس وتدفعه إلى
الجريمة.

ولم يحدث في تاريخ مصر أن تحالف عليها هذا الكم من
المشاكل التي تأخذ بالحناق.. الجفاف، والديون، والجراد، والتصحر
(هجوم الصحراء على الرقعة الخضراء وردمها)، والتآكل (هجوم
البحر المالح على الشواطئ وغمرها)، والنحر (هبوط نهر النيل
بسبب نحر الماء الخفيف الخالي من الطمي للمنشآت والشط)،
وأزمة الطاقة (بسبب هبوط الكهرباء)، وأزمة الغذاء بسبب ضعف
الإنتاج.. والانفجار السكاني، ٥٤ مليون فم يأكل ولا يعمل..
والبطالة بسبب عدم استيعاب المشروعات الموجودة للأيدي
العاملة.. والدعم الذي يذهب إلى البالوعة.. ومجانبة التعليم التي
تحولت إلى اللامجانبة والتعليم.. والإرهاب، والمخدرات،
والتطرف، والفتنة الطائفية.. وفوق كل هذا انقسام الصف
العربي، وتنامى قوة إسرائيل، وتفاقم عدوانها، وتحولها إلى قوة
نورية وحيدة عابثة في المنطقة.. ثم أسوأ من كل هذا.. انهيار
الأخلاق، وفساد الذمم، وضياع القيم، وتفشى الكذب، والغش،

والتزوير والرشوة، والسرقة، وفي مواجهة كل هذا جبهة مثقفة منقسمة بين يمين ويسار، وأحزاب ومهاترات، وأفكار مستوردة، وجدل بيزنطى، وقلة من شباب متهوس تتصور أن الحل هو الثورة والانقلاب، وأن تخلع الجالس على الكرسي وتجلس مكانه.. ولا يوجد حل أكثر سذاجة من هذا، وهو أشبه بحل أزمة المرور بإلغاء الإشارات، وحل مشكلة الظلم بالفوضى.

ومشكلة مصر لا يحلها استبدال شخص بشخص..
والمسألة غير هذا تمامًا.

فالعيب في المناخ العام وفي مستوى الوعي.. العيب في الناس صغارهم وكبارهم.. العيب في التعليم الهابط وما يفرزه من لياقات هابطة وعقليات هابطة.. العيب في النمط الاستهلاكي من الحياة وما يفرزه من جشع مادي وتهالك وسلوكيات أنانية.. العيب في روح السلبية والكسل، وعدم المبالاة، وعدم الانتباه.. العيب في ثقافة التسلية وقتل الوقت، والإعلام الترفيهى، ومسرح الهزل، وصحافة المهاترات، وأغاني الكباريه، ورقص المواخير.

واليسار المصرى وقدامى الماركسيين الذين أصابهم تصلب الشرايين مازالوا واقفين عند شعاراتهم البالية يرددون نفس الموالم القديم عن القطاع العام والتأميم وملكية الدولة لوسائل الإنتاج، وصرخاتهم التى تعالت وارتفعت لمجرد التفكير فى بيع فندق سان ستيفانو كشفت عن مدى التخلف العقلى الذى يعيشون

فيه، وكأنهم حفريات جيولوجية متحجرة لكائنات انتهى عصرها. والظاهر أنهم لا يدركون أن الدنيا تغيرت من حولهم، ولا يعرفون أن البرافدا أصبحت تتكلم بلغة جديدة.. وكذلك صاحبهم ميتران في فرنسا الذى خلع ثوب الأيديولوجية اليسارية، وأسقط كلمة الاشتراكية من قاموسه، ودخل الانتخابات بشخصه، لكي يستطيع الحصول على صوت الناخب الفرنسى الذى لم يعد يستهويه الدجل الاشتراكى.

لقد سقط اليسار يا سادة، والشيوعية لم تستطع أن تحصل إلا على ستة فى المائة من الأصوات فى الانتخابات الفرنسية الأخيرة، أى أقل من نصف ما حصل عليه لوبن الذى يسمونه فى فرنسا اليمىنى القذر.

يا إخوة.. أفيقوا.. لقد تغيرت الدنيا.

وحزب التجمع حينما يضع يده فى يد حزب الوفد ليضرب الحكومة هو لم يضرب الحكومة، بل ضرب نفسه بالضربة القاضية، وأثبت أن مبادئه قابلة للبيع فى سبيل ربح تافه، أو حتى مظنة ربح.

إن أكثر القيادات التى تتصدى لهذه المرحلة التاريخية من حياتنا هى للأسف دون مستوى المسئولية، ودون مستوى المرحلة بكثير.

والتيار الإسلامى برغم انحراف القلة وضياعتها فى الشكليات والمظهريات مازال هو الذى يملك القدرة على التنوير والتغيير، لأنه التيار الوحيد الذى يملك التأثير، والوحيد الذى يملك قدرة التغيير من الباطن بإيقاظ الضمائر وتحريك القلوب، وهذا هو المطلوب بالضبط فى هذه المرحلة التاريخية.. ليس الثورة ولا الانقلاب، ولا استبدال الكراسى.. وإنما إيقاظ الضمائر، وتحريك القلوب، والنفخ فى موات القيم لتصبح النفوس غير النفوس، وهذا هو الشرط الوحيد الذى شرطه علينا ربنا ليغيرنا.. أن نتغير من داخلنا.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.

تغيير ما بالنفس هو الشرط.. وهو أمر باطنى لا يقدر عليه إلا تنوير دينى.. وإشراق عرفانى.

أما اليسار السعيد فله أن يخطب ما شاء من الخطب، ويدبج ما شاء من الكتب، ويسود ما شاء من الصحف، فلن يستطيع أن يفعل شيئاً.. فلا أحد يقرأ له أو يستمع إليه أو يصدقه.. وقد أخذ فرصته على مدى عشرين عاماً، وطبق برأيه، وفرض نظرياته، وانتهى بنا إلى هزيمة ٦٧ وإلى الخراب الاقتصادى الذى مازلنا نعيش فيه، وإلى الحلقة المفرغة الموحلة التى نحاول أن نخرج منها.

واليمين البائد عشنا رحلته الطويلة القديمة حتى حريق

القاهرة وشهدنا فشله، وما زلنا نسمعه إلى الآن يتكلم بنفس اللغة، وقد نسي تماماً أن الزمن تغير، والمشاكل تغيرت، والتناقضات اختلفت، والخريطة السياسية اختلفت، والأكليشيات القديمة لم تعد تنفع، والمهارات لم تعد تفيد. وقد انتظرنا أن يخرج من كنانته بضاعة جديدة وأفكاراً جديدة، فلم يخرج شيئاً، وعادت صحافته إلى الشتم والمهارات. ولم يبق إلا التيار الإسلامي.

والإسلام هو الحل، ولكن ليس الإسلام الشكلي، ولا التدين المظهري، وإنما الإسلام في حقيقته وجوهره.. إسلام العلم والعمل ومكارم الأخلاق.. إسلام الحرية والديموقراطية والعدالة الاجتماعية.. إسلام الفكر والفعل.

إن جاهلية قريش لما اختلفوا على مَنْ يحمل الحجر الأسود ويضعه في مكانه وأوشكوا على الشجار والقتال ظهر لهم محمد على رأس الطريق.. لم يقولوا جاء ذو اللحية، جاء محمد.. بل قالوا: جاء الأمين، جاء محمد.. (لأن الأمانة كانت جوهر الموضوع، وكانت هي أساس التفضيل).

وحسناً أن نقلد النبي ﷺ في كل شيء، ولكن تقليده في مظهره وحده لن يقي بالغرض، أما تقليده في أمانته ومكارم أخلاقه- وشهامته وشجاعته وكرمه وحلمه وأبوه وصبره وجلده

وإيمانه، فهي هنا روح المسألة.

والخلاف في الشكليات خروج بالإسلام عن روحه ومضمونه،
كما أن الإغراق في الغيبيات خروج بالإسلام عن روحه
ومضمونه.

والأمل أن تفرز الصحة الإسلامية قيادات مستنيرة تعيش
محنة العصر بمتغيراته، فلا تفرق جماعة المسلمين في الخلافات
الشكلية، ولا تضع همتهم في المتاهات الغيبية.

قيادة تمثل الوسط العدل، وتلتقط بحسها المرفه روح العصر
التي تتمثل في انطلاقة العلم واندفاع العقل، وتزواج بينها وبين
القيم الإسلامية الرفيعة، والأخلاق الإسلامية الأصيلة والتوحيد
الإسلامي الخالص.

قيادة يصنعها الله على عينه.
وإنه لفاعل، فالله لم يخلق العالم ليتركه سُدى، ولم يبعث
بالديانة الخاتمة ليدعها هملًا.

ولكن علينا أن نقوم بدورنا.. فنغير ما بأنفسنا
علينا أن نحرق أرضنا ونستصلح نفوسنا البور.
ونستطيع أن نفعل الكثير بنفس النظام ولكن بإدارة أحسن،
وبأخلاقيات أحسن، وبعمل أكثر، وبحماس أكبر نحو الإلتقان
والإجادة.

وبرغم عيوبنا فقد استطعنا أن ننهض بعد كبوة عبد الناصر، واستطعنا أن نخرج من هزيمة ٦٧، ومن المرافق المهلهلة والمصانع المعطلة.. وأنشأنا بنية أساسية جديدة من العدم، مدناً، وموانئ، ومصانع، وكبارى وسنترالات، وأنفاقاً، وطرقاً، وأراضى مستصلحة، ومحطات توليد كهرباء، ومستشفيات، ومدارس (حجم من الإنشاءات أكثر من عشرة أضعاف السد العالي في أقل من عشرين سنة) لكن سرعة التفريخ البشرى والانفجار السكاني يلتهم معظم خيراتها.

وعلينا أن نكون أكثر جدية في ضبط النسل.
إن الثورة المطلوبة ثورة داخلية.. ثورة كل منا على نفسه.
واستنهاضه لأفضل ما فيه.

وتحرّيكه لأنبل ما يبطن من إمكانيات.
وفي هذا المجال لا شيء يفعل فعل الدين والإيمان.

الدين الحقيقي، والإيمان الحقيقي الذى لا يضيع في الشكليات والمظهريات والمجدل العقيم.

إن الشباب الذى يجلس على الرصيف السياسى ليفتى بأن لعب الكرة حرام، والجمباز حرام، والموسيقى حرام، وخروج المرأة للعمل حرام، وصوتها عورة، والاختلاط بها إثم، والمشى فى الشارع إفك، وحلق اللحية كفر، وتقبيل راية الوطن شرك، والتطوع فى الجيش خطيئة.

هذا الشباب لا يمثل الإسلام، ولا يمثل آمال بلده، وإنما يمثل على الأكثر أمله في أن يصبح زعيماً وأن يكون له حكم وسلطة على رقاب الناس.

وهو ليس أكثر من هامش لتيار عريض مازال سليماً.
ولا أحد يصبح نابليون لمجرد أنه يحلم بأنه نابليون.

ولا أحد يملك أن يغير التاريخ بهواه، وإنما الله هو الذى يضع هؤلاء الذين يغيرون التاريخ في مناصبهم للمدة التى يراها وللحكمة التى يعلمها.

والله لن يضع هؤلاء الشباب الصغار فى حكم، ولن يسلمهم سلطة.

والله لا يلعب الترد بالكون كما يقول أينشتين.. وإنما كل شيء عنده يجرى بمقدار.. بنظام، وقانون، وحكمة، وانسجام، وتناسق لانهائى.

وفى النهاية لا يصح إلا الصحيح.